تفسير القرآن الكريم

سورة القارعة

بسم الله الرحمن الرحيم . ﴿ القارعة ، ما القارعة ، وما أدراك ما القارعة ، يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ، وتكون الجبال كالعهن المنفوش ، فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية ، وأما من خفت موازينه فأمه هاوية ، وما أدراك ماهيه ، نار حامية ﴾ .

بيان مكان نزولها وعدد آياتها :

هي سورة مكية بلا خلاف ، وآياتها إحدى عشرة على المشهور .

بيان مناسبتها لما قبلها :

لما ذكر في السورة السابقة وقت بعثرة القبور ، وهو وقت البعث والنشور ، أتبعه بذكر أهوال القيامة ، وما يلاقيه الناس فيها من الكروب والشدائد .

الكلام على المعنى :

« القارعة » :

مأخوذ من القرع ، وهو الضرب الشديد ، وذلك بحسب الأصل . ثم سميت الحادثة المؤلمة من حوادث الدهر قارعة ، لما فيها من الايلام .

والمراد بالقارعة هنا : القيامة ، سميت بذلك ، لأنها تقرع القلوب بالهول ، وتملأ النفوس بالفزع ومبدؤها النفخة الأولى ، ومنتهاها فصل القضاء بين الخلائق .

« ما القارعة » :

استفهام عن حقيقتها يقصد به تهويل أمرها ، وتفظيع حالها ، وتنبيه النفوس إلى ما يكون فيها من الأهوال التي تفزع لها القلوب ، وتدهش منها العقول ؛ حتى إنه ليصعب تصورها ، ويستحيل على العقل إدراك كنهها .

« وما أدراك ما القارعة » :

وأى شيء أعلمك بكنهها وحقيقتها ؟ إنك لا علم لك بذلك ؛ لأنها فى الشدة بحيث لا يبلغ معرفتها فهم فاهم ، ولا يدرك حالها وهم واهم ، وأنت مهما قدرتها وحدست شأنها فهو أعظم من تقديرك ، وأبعد عن حدسك .

وإن هذا الابهام بعد دلالته على تهويل أمر القارعة ، وتعظيم شأنها ، يدل على أن تفصيل شأنها ، مما لا سبيل إلى معرفته ، ولا طريق إلى إدراكه إلا من طريق العليم الخبير .

ولما بين سبحانه وتعالى أن معرفة كنهها وإدراك حقيقتها مما لا سبيل إليه ، وأنه فوق التقدير والحدس ، أخذ فى بيانها إجمالا بذكر ما يحدث للناس والجبال فى يومها ، فقال :

« يوم يكون الناس كالفراش المبثوث » :

« يوم » ظرف لمحذوف دل عليه القارعة ، والتقدير : تقرع القلوب يوم يكون الناس ... الخ .

« كالفراش » خبر ليكون . والتقدير : يوم يكون الناس مشبهين الفراش المبثوث . و « الفراش » هو ذلك الطير الذي يتراءى على ضوء السراج ليلا . و « المبثوث » المفرق .

شبه الله الناس يوم البعث فى هذه الآية بالفراش المبثوث ، لأنه إذا ثار لم يتجه لجهة واحدة ، بل كل فراشة منه تذهب إلى جهة غير الجهة التى تذهب

إليها الأخرى ، فدل هذا على أن الناس إذا بعثوا فزعوا وروعوا ، ودهشوا وذهلوا ، واختلفوا فى المقاصد والجهات .

وقد شبههم فى آية أخرى بالجراد المنتشر من حيث كثرتهم وتتابعهم ، وتزاحمهم وتراكمهم ، فلا يقال : إن الجراد كبار والفراش صغار ، فكيف يشبه الشىء الواحد بما هو كبير وبما هو صغير ؟ لأن التشبيه لم ينظر فيه إلى الحجم ، بل نظر فيه إلى الفزع والحيرة واختلاف المقاصد فى الأول ، وإلى الكثرة والتتابع والتراكم والتزاحم فى الثانى .

ويقول القرطبى : إنهم فى أول حالهم يكونون فى اضطراب وحيرة ، وفى آخر حالهم يجيبون الداعى ويتجهون إليه من كل صوب ، فباعتبار الأول شبهوا بالفراش فى عدم الاهتداء ، وباعتبار الثانى شبهوا بالجراد فى معرفة المقصد والاهتداء إليه .

« وتكون الجبال كالعهن المنفوش » :

« العهن » : الصوف . « المنفوش » : المفرق باليد حتى تفشت أجزاؤه وأصبحت تطير مع أضعف ريح .

فالجبال شبهت فى تفتتها وتفرق أجزائها يوم القيامة ، بالصوف المنفوش الذى يتطاير ويذهب بالريح الضعيف .

وإنما ذكر الله تعالى حال الجبال فى يوم البعث ، للتنبيه به على أن حال الجبال القاسية والصخور الصلدة ، إذا كان كالعهن المنفوش لفداحة القارعة وهولها وشدتها وكربها ، فكيف يكون حال الانسان عند حدوثها ، وهو صاحب الهيكل النحيل ، والجسم الضعيف ؟ !

فهل يأخذ الانسان من التذكير بالمعاد وهوله ، والبعث وخطبه ، والنشور وكربه ، أهبته لذلك اليوم الذى ترتاع له القلوب ، وتلتاع النفوس ، وتذهل له العقول ؟ ! وهل يتزود لذلك بالعمل الخالص ، والقول الصادق ، والعدل

الشامل، والانصاف الكامل؟. وهل يكف يده عن الاغتيال والعدوان، والظلم والطغيان، والقتل والشر، والبغي والتنكيل؟.

أما والله لقد ذكر القرآن وأنذر، ووعظ وأعذر، وهدى وبين، وقد وضح الصبح وتبلج، وبعد ذلك نقول ما قال الله: «من عمل صالحا فلنفسه، ومن أساء فعليها، وما ربك بظلام للعبيد».

ثم قال تعالى: «فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية، وأما من خفت موازينه فأمه هاوية، وما أدراك ماهيه، نار حامية»

«الموازين»: إما جمع موزون، وهو العمل الذى له وزن وخطر عند الله؛ وإما جمع ميزان، وهو الآلة التى يوزن بها.

و «العيشة الراضية»: الحياة المرضية له، المحبوبة عنده.

والمعنى: إن من رجحت حسناته على سيئاته عند فصل القضاء، فانه يصير فى الدار الآخرة فى حياة تقر بها عينه، وتسر بها نفسه، ويطمئن لها قلبه. وهي من غير شك حياة الجنان، ونعيم الخلود، وراحة الفردوس، وهل بعد نعيم الجنة نعيم يسر النفس ويشرح الصدر؟ وهل بعد عيشتها عيشة ترضى الأفئدة وتريح القلب؟

دار بها للعاملين سعادة وفيها لمن يخشى الاله مقام
إذا فزت فيها بالشهود تجليا فأنعم به عند الاله جزاء (١)

أما قوله تعالى: «وأما من خفت موازينه» الخ ... فمعناه ما يأتى:

«خفت موازينه» رجحت سيئاته على حسناته.

«أمه هاوية» مأواه النار، لأن الهاوية من أسماء النار، وكأنها النار العميقة التى يهوى أهل النار فيها مهوى بعيدا. وقيل للمأوى: أم على سبيل

---

(١) البليني.

التشبيه بجامع الضم فى كل . وقيل : المعنى ، فأم رأسه هاوية فى النار ، لأنهم يهوون فى النار على رءوسهم .

وقال الأخفش : إن العرب كانوا إذا دعوا على رجل بالهلاك قالوا : هوت أمه، لأنه إذا هوى وسقط هالكا ، فقد هوت أمه حزنا وثكلا . فكأنه قيل : وأما من رجحت سيئاته على حسناته فقد هلك . والراجح الأول .

وضمير « هيه » يرجع إلى الهاوية ، والهاء الملحقة به هاء السكت ، تثبت وصلا ووقفا عند الجمهور ، وأسقطها حمزة فى الوصل .

وقوله : « نار حامية » : خبر لمحذوف ، والتقدير : هي نار حامية .

ومعنى الجملة : أى شىء أعلمك أيها المخاطب ماهي تلك الهاوية وما حقيقتها وما كنهها ؟ إنها نار حامية ملتهبة ، يهوى فيها من رجحت سيئاته ، وقبحت أعماله ، ليلقى جزاء ما قدم من عمل ، وما اقترف من سوء

وفيه إشارة إلى أن النيران التى نشاهدها الآن مهما اشتدت وقويت ، كأنها ليست حامية إذا نسبت إليها وقيست بها .

بيان ما قيل فى وزن الأعمال :

اختلف المسلمون فى بيان وزن الأعمال يوم القيامة ، فحمل جمهور أهل السنة الوزن على حقيقته ، كما هو الحال فى الدنيا، غير أنهم اختلفوا فى كيفية الوزن :

فقال بعضهم : إن نفس الحسنات والسيئات لا يصح وزنها ، خصوصا وقد تقضيا وانتهيا ، والذى يوزن هو الصحف التى كتب فيها الحسنات والسيئات .

وقال جماعة : يوزن نفس الأعمال ، فتصور الصالحة بصور حسنة نورانية ، ثم تطرح فى كفة النور ، وهى الكفة اليمنى المعدة للحسنات ، فتثقل بفضل الله ، وتصور الأعمال السيئة بصور قبيحة ظلمانية ، ثم تطرح فى كفة الظلمة ، وهى الشمال ، فتخف بعدل الله .

ثم قالوا جميعا : والأشهر الأصح أنه ميزان واحد لجميع الأعمال ، وأن له لسانا وكفتين، والله تعالى أعلم بماهيته، وأن الثقل والخفة مثلها فى الدنيا .اهـ

وأنكر المعتزلة وجماعة من أهل السنة حقيقة الوزن ، وقالوا : إن الوزن عبارة عن القضاء السوى والحكم العادل .

وقال الأستاذ الامام : ثقل ميزانك : إذا كان لك قدر وقيمة ، كأنك إذا وضعت فى كفة ميزان كان لها بك رجحان . وخف ميزانك : سقطت قيمتك فكأنك لست بشىء ، حتى لو وضعت فى كفة ميزان لم ترجح بك عن أختها ، ثم قال : وهذا المعنى قد صرح به فى سورة الكهف فى قوله تعالى : « فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا » . وبهذا صح نسبة الخفة والثقل إلى الموازين بأجمعها . وتقدير الأعمال وما تستحقه من الجزاء فى ذلك اليوم إنما يكون على حسب ما يعلم الله لا على طريقة ما نعلم ، فعلينا أن نفوض الأمر فيه إليه سبحانه وتعالى مع الايمان به . ومن عجب ما قال بعض المفسرين : إنه ميزان بلسان وكفتين كأطباق السموات والأرض ولا يعلم ماهيته إلا الله ، فاذا بقى من ماهيته بعد لسانه وكفتيه حتى يفوض العلم فيه إلى الله تعالى ، والكلام فيه جرأة على الله بغير نص صريح متواتر .

وقد قالوا : إن منكر الميزان بالمعنى المعروف لا يكفر ، وهذا حق ، خصوصا إذا كان القائل به يحدد له لسانا وكفتين ، مع أن البشر قد اخترعوا من الموازين ما هو أتقن من ذلك وأضبط وأوفى ببيان الموزون . أفيأبى الحكيم والخبير إلا استعمال ذلك الميزان الخشن الذى هدى العلم عقول البشر إلى ما هو أدق منه ؟ اهـ

والله أعلم . ونستغفر الله من الزلل : والله ولى التوفيق ؟

عبد الرحيم فرغل البلينى
المدرس بكلية الشريعة